Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولكن هذه القيمة ينكرها عبدالقاهر أيضاً ، إلا إذا اتصلت بالمعنى فيناقش بأسلوبه الجدلى القائلين بوصف الألفاظ بالفصاحة ، ويقول إنه لاتخلو الفصاحة من أن تكون فى اللفظ محسوسة تدرك بالسمع ، أو تكون فيه صفة معقولة تعرف بالقلب ، فمحال أن تكون صفة فى اللفظ محسوسة ، لأنها لو كانت كذلك لكان ينبغى أن يستوى السامعون للفظ الفصيح فى العلم بكونه فصيحاً ، وإذا بطل أن تكون محسوسة وجب الحكم ضرورة بأنها صفة معقولة . وإذا وجب الحكم بكونها صفة معقولة ، فإنا لانعرف للفظ صفة يكون طريق معرفتها العقل دون الحس إلا دلالته على معناه . وإذا كان كذلك لزم منه العلم بأن وصفنا اللفظ بالفصاحة وصف له من جهة معناه لامن جهة نفسه ، وهذا مالا يبقى لعاقل معه عذر فى الشك ! .. وإذا قرأ القارىء قوله تعالى « واشتعل الرأس شيباً » فإنه لايجد الفصاحة التى يجدها إلا من بعد أن ينتهى الكلام إلى آخره . فلو كانت الفصاحة للفظ « اشتعل » لكان ينبغى أن يحسها القارىء فيه حال نطقه به ، فمحال أن تكون للشيء صفة ثم لايصلح العلم بتلك الصفة إلا من بعد عدمه ! ومن ذا رأى صفة يعرى موصوفها عنها فى حال وجوده حتى إذا عدم صارت موجودة فيه ؟ (الدلائل ٣١٢) ثم يرى أنه لايجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم ، وحسن ملائمة معناها لمعانى جاراتها ، وفضل مؤانستها لأخواتها . وهل قالوا « لفظة متمكنة ومقبولة » وفى خلافه « قلقة ، ونابية ، ومستكرهه » إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما ، وبالقلق والنبو عن سوء التلاؤم ، وأن الأولى لم تلق بالثانية فى معناها وأن الثانية لم تصلح أن تكون لفقا للتالية فى مؤداها ؟ .

وهكذا نرى عبدالقادر لايعترف إلا بالمعنى ، أما اللفظ فليس له منزلة فى العبارة إلا من حيث تأديته لمعناه ، والألفاظ فى رأيه لاتتفاضل من حيث هى ألفاظ مجردة ، ولا من حيث هى كلم مفردة ، وإنما تثبت للألفاظ الفضيلة وخلافها فى ملاءمة اللفظة لمعنى التى تليها ، أو ما أشبه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ .. ولو كانت الكلمة إذا حسنت من حيث هى لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك فى ذاتها ، وعلى انفرادها دون أن يكون السبب فى ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها فى النظم لما احتلف بها الحال ، ولكانت إما أن تحسن أبداً ، أو لا تحسن أبداً .. ولكنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك فى موضع ، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك فى موضع آخر ، كلفظ « الأخدع » فى بيت الحماسة :